رسالة غبطة البطريرك الماروني الكاردينال مار نصرالله بطرس صفير بمناسبة بدأ الصوم لسنة ٢٠٠٢

حض غبطة البطريرك الماروني الكاردينال مار نصرالله بطرس صفير على "تضافر جهود من هم في الحكم، ومن هم في خارجه، لانهاض لبنان من كبوته، بعد اجراء مصالحة حقيقية تشمل الجميع دونما استثناء"، لافتاً الى ان "المصالحة المرتجاة يبدو انها لم تتم".

في رسالة الصوم الى اللبنانيين، التي لم تغفل قضية من القضايا اياً كان حجمها ونوعها، اكد البطريرك صفير ان السلام "لا يبنى على البطش والقهر والظلم وتهديم البيوت" كما يحصل في فلسطين، ثم انتقل الى موضوع الانتخابات النيابية والبلدية، ورأى ان القوانين الانتخابية اذا صيغت كلما كان هناك انتخاب، وقسمت الدوائر تقسيماً يفسح في المجال لاغراق اصوات الاكثرية من لون واحد اصوات الاقلية في الدائرة ذاتها "فأين يكون التمثيل الصحيح؟" وطالب بالدائرة الفردية، منتقداً "ارادة غير وطنية تُجلس المسؤولين في مقاعدهم وتفرض عليهم معاونيهم في اعلى المناصب".

كذلك انتقد البطريرك صفير السلطة الامنية التي "قفزت" فوق السلطتين التشريعية والتنفيذية، والسلطة القضائية و"أوقفت هذا واحتجزت ذاك، قيد التحقيق، ويمضي الشهر والأشهر والموقوف موقوف ولا تحقيق ولا محاكمة ولا حكم ولا افراج عن المحتجزين، من دون اظهار اي احترام لحقوق الانسان".

ومن "الممارسات" الى الادارة والشواغر والطائفية وتعطيل المعاملات وغيرها.

رسالة الصوم شملت كل المواضيع واكتسبت اهمية نظراً الى المواقف التي تضمنتها. وقد وجهها البطريرك وهي السابعة عشرة له، الى "ابنائه الموارنة اكليروساً وعلمانيين" في مناسبة الصوم الكبير، وعنوانها "في المصالحة مع الله والناس والدولة"، وهنا نصها: "لقد انقضى ربع قرن على اندلاع الحروب اللبنانية على ارضنا، وعشر سنوات على ازالة الحواجز المسلحة، واسكات المدفع، والعودة – ولو نظرياً – الى السلم الاهلي، ولكن المصالحة المرتجاه والتي نصلي كل يوم من اجل تحقيقها، يبدو انها لم تتم بحيث يشعر اللبنانيون بأنهم يعيشون في مخافة الله، في جو من التعاون المخلص في ما بينهم، وفي ظل دولة ترعاهم بالمساواة، فتفسح لهم في المجال للاشتراك في اعادة البناء على انواعه: بناء النفوس على احترام القيم، وبناء المجتمع على التعاون والسلم الاهلي الصحيح، وبناء الدولة والوطن اللذين يبسطان ظلهما على الجميع، دونما استثناء.

لذلك رأينا ان نحدثكم هذه السنة، في رسالة الصوم الكبير، عن المصالحة مع الله، ومع الناس، ومع الدولة، وما تقتضيه هذه المصالحة من شروط لا بد منها لتكون هذه المصالحة حقيقية، لا وهمية.

اولا: المصالحة مع الله

المصالحة مع الله هي من صميم الحياة المسيحية، وان ما اوقع الانسان في حال عداوة مع الله توجب المصالحة، انما هي الخطيئة الاصلية التي تستدرج الانسان الى ارتكاب الشر على انواعه. لذلك يشعر الانسان بالميل الى ارتكابه، فيما ارادته التي تستقوي بالنعمة الالهية تحاول منعه من ارتكابه. وهذه هي مأساته التي تمزقه في داخله، وهي مأساة عاشها بولس الرسول فعبّر عنها بقوله: "ان ما اريده لا اعمله، وما اكرهه اعمله... واذا كنت اعمل ما لا اريده، فما انا الذي يعمله، بل الخطيئة التي تسكن فيّ"... ويتابع قائلاً: "ما اتعسني انا الانسان! فمن ينجيني من جسد الموت هذا؟. لذلك ان هذا الوضع المخيف الذي يجد الانسان نفسه فيه يوجب عليه، اذا كان يريد ان يعيش في مخافة الله، ان يتوب اليه تعالى ويستغفره باستمرار عما يكون قد خطئ به اليه. ولذلك يدعو بولس الرسول جميع الناس الى المصالحة مع الله من خلال قوله في رسالته الثانية الى اهل كورنتس: "نناشدكم باسم المسيح ان تتصالحوا مع الله، لأن الذي ما عرف الخطيئة، جعله الله خطيئة، من اجلنا لنصير به ابراراً عند الله".

وفي الثاني من كانون الاول عام ١٩٨٤، اصدر قداسة الحبر الاعظم البابا يوحنا بولس الثاني رسالة في "المصالحة والتوبة في رسالة الكنيسة اليوم"، ضمنها تعليم الكنيسة في هذا المجال. ومما جاء فيها قوله: "ان الله امين لمقصده الازلي حتى عندما يسيء الانسان، بدافع من الشيطان، وانجرافاً مع كبريائه، استعمال الحرية المعطاة له ليحب الخير، ويسعى سعياً حثيثاً اليه، رفضاً هكذا واجب الطاعة لربه وأبيه، وكذلك عندما لا يجيب الانسان على محبة الله بالمحبة، وعندما يقاومه مقاومة خصم له، فيخدع نفسه بالاعتماد على قواه الذاتية، وهذا ما يقوده الى قطع العلاقة القائمة بينه وبين من خلقه. ورغم هذا الانحراف لدى الانسان، فان الله باق على محبته. وفي الحقيقة، ان قصة الفردوس الارضي تحملنا على التأمل في العواقب الوخيمة، التي نشأت عن رفض الآب، وما ولّد هذا الرفض من خلل في نفس الانسان، ومن فقدان ألفة كانت قائمة بين الرجل والمرأة، وبين الاخ وأخيه... ان رفض محبة الله الأبوية وعطاياه المطبوعة بطابع المحبة، هو دائماً سبب انقسام الجنس البشري".

الله ينبوع المصالحة

كنا في حال عداوة مع الله، وهو الذي بادر الى مصالحتنا بابنه يسوع المسيح الذي ارسله الينا، فصار انساناً مثلنا ما عدا الخطيئة. وهذا ما أكده بولس الرسول بقوله: "واذا كان الله صالحنا بموت ابنه، ونحن اعداؤه، فكم بالأولى ان نخلص بحياته ونحن متصالحون. فالمبادرة بالمصالحة جاءت منه. يبقى علينا ان نعرف ذلك وان نستفيد منه. ولا سبيل الى المصالحة مع الله الا من طريق يسوع المسيح الذي اقامه ابوه الوسيط الوحيد بين الله والناس، على ما يقول بولس الرسول: "ان الله مخلّصنا الذي يريد ان يخلص جميع الناس، ويبلغوا الى معرفة الحق، لأن الله واحد، والوسيط بين الله والناس واحد، هو المسيح يسوع الانسان الذي ضحى بنفسه فدى لجميع الناس، والشهادة على ذلك تمت في وقتها". وهذا ما سبق ليوحنا الرسول ان اثبته بقوله: ان على المسيح "أن يموت" ليجمع ايضاً في واحد، ابناء الله المشتتين".

المصالحة من طريق الكنيسة

اذا كان المسيح هو الوسيط الوحيد بين الله والناس، فان المسيح عينه قد أسس كنيسته لتكون الطريق التي يجب على المؤمن ان يسلكها ليحصل على نعمة المصالحة مع الله. وقد رسم السيد المسيح الاسرار الالهية السبعة، وجعلها في الكنيسة وسيلة للتبرير والتقديس. وخص من بينها، بعد سر العماد، سر التوبة والمصالحة الذي يفسح في المجال للمؤمن التائب لكي يبرز مشاعر الندم على ما ارتكب من اساءات الى الله ونفسه والقريب، ويظهر التوبة عما كان، والقصد، بمعونة اللهو، على عدم العودة الى ارتكاب ما ارتكب. وهذا يعني انه على المؤمن ان يغيّر مسراه، لا ظاهرا، بل فعلا وحقا. جاء في تعليم الكنيسة الكاثوليكية أن: "التوبة الباطنية هي اتجاه اساسي جديد للحياة بكاملها، وتحول، وارتداد الى الله من صميم القلب، وقطيعة مع الخطيئة، وكره للشر، وطلاق في الوقت عينه للأعمال السيئة التي ارتكبناها. وهي تعني في الوقت ذاته الرغبة في تغيير الحياة، والقصد عليه، مع وضع الرجاء على رحمة الله، والثقة بمعونة نعمته. ويرافق ارتداد القلب هذا ألم وحزن خلاصي دعاه الآباء "وجع الروح" وندامة القلب"... قال القديس اقليمنضوس الروماني: "لنحدد نظرنا الى دم المسيح، ولنعتبر كم هو ثمين بالنسبة الى الله أبيه، في الواقع، وهو دم مراق من اجل خلاصنا، وهو يقدم الى العالم كله نعمة الارتداد. والتوبة تجعل التائب أهلا لنيل غفران الخطايا والمسامحة، وتمكنه من المصالحة مع الكنيسة بممارسته سر التوبة وما يتبعه من اعتراف بالخطايا. والمسيح عينه هو من اعطى اصحاب الدرجة الكهنوتية سلطان مغفرة الخطايا عندما قال لرسله: "ان لابن الانسان سلطانا على الارض لمغفرة الخطايا". ومارس هذا السلطان بقوله للمخلّع: "مغفورة لك خطاياك". ولم يكتف السيد المسيح بمغفرة الخطايا، لكنه أعاد للخطأة ما لهم من كرامة، فقبلهم في عداد جماعة شعب الله الذي كانت الخطيئة قد عزلتهم عنه، وأخرجتهم منه. وبرهانا على ذلك، انه جالسهم الى موائدهم، فآكلهم، وشاربهم، وهذه علامة على أنه غفر لهم، وأعاد لهم ما كان لهم من مكانة في شعب الله.

ثانيا: المصالحة مع الناس

المصالحة مع الله والكنيسة لا تستقيم ان لم تكتمل بالمصالحة مع الناس. وهذا ما شدد عليه السيد المسيح بقوله في خطابه على الجبل، وهو دستور الحياة المسيحية: "اذا كنت تقدم قربانك الى المذبح، وتذكرت هناك ان لأخيك عليك شيئا، فاترك قربانك عند المذبح، واذهب اولا وصالح أخاك، ثم تعال وقدم قربانك" والله لا يغفر للناس زلاتهم، الا اذا غفر أحدهم للآخر زلاته، فقال: "فان كنتم تغفرون للناس زلاتهم، يغفر لكم ابوكم السماوي زلاتكم". وعاد فكرر الفكرة عينها انما بصيغة السلب، هذه المرة، فقال: "وان كنتم لا تغفرون للناس زلاتهم، لا يغفر لكم ابوكم السماوي زلاتكم". واما الغفران الحق، الصادق، فلا يقف عن حد. وهذا ما نعرفه من جواب السيد المسيح عن سؤال طرحه عليه بطرس، بقوله له: "كم مرة يخطأ الي اخي وأغفر به؟ أسبع مرات؟ فكان جواب يسوع واضحا صريحا لا يقبل الجدال: "لا سبع مرات، بل سبعين مرة سبع مرات اي الى ما لا نهاية له. وهو يأمر بالرحمة التي لا تستقيم العدالة بدونها، فقال: "كونوا رحماء، كما ان الله أباكم رحيم". لا بل انه ذهب الى حد الامر بمحبة الاعداء، وهذا ما لا تتقبله الطبيعة البشرية بسهولة. فقال: "ولكني أقول لكم، ايها السامعون: أحبوا أعداءكم، وأحسنوا الى مبغضيكم، وباركوا لاعنيكم، وصلوا لأجل المسيئين اليكم. فلا عجب افليست المحبة هي شعار المسيحيين الملتزمين ايمانهم المسيحي؟ افما افضى السيد المسيح الى تلاميذه بوصيته الاخيرة التي افصح عنها قبل ذهابه الى منقع العذاب، فحمل الصليب ليموت عليه، فقال لتلاميذه: "اعطيكم وصية جديدة، أحبوا بعضكم بعضا، ومثلما انا أحببتكم، أحبوا انتم بعضكم بعضا. واذا أحببتم بعضكم بعضا، يعرف الناس جميعا انكم تلاميذي". وبعد، أفما علمنا في الصلاة الربية ان نتجه الى الله الآب قائلين: "اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، كما نحن نغفر لمن خطئ الينا"، فالمقياس غفرانه لنا وعلى مثاله يجب ان نتصرف.

المصالحة والسلام الداخلي

ان مجتمعا نعيش فيه لا يشجع الناس على المصالحة. لا بل انه يحض على رد الكيل كيلين، والصاع صاعين، وهذا ما تقتضيه الكرامة والعنفوان، في ظن بعضهم. وفاتهم ان قوة كبح جماح الغضب والانتقام، والقدرة على الصفح والغفران لدليل كبير على قوة أين منها القوة على الانتقام. وأن تقول: لا! عندما يكون كل ما فيك من مشاعر وغرائز، وكل ما ومن حولك يقول لك: بلى! انتقم، وانت تقاوم وحدك كل هذه الجحافل الداخلية، فهذه هي البطولة الحق. أجل، الصفح، والغفران، والمصالحة، يقتضي لهما نعمة خاصة، يجب ان نسأل الله دائما وباستمرار ان يعطيناها. وهناك من يظنون انه علينا ان ننسى لكي نغفر. وهل النسيان يعني ان نتصوف وكأن شيئا لم يكن؟ وان نعطي المسيء الفرصة الكافية ليصلح أمره؟ وان نثق بأنه لن ينزل بنا أي أذى بعد؟ لا نعتقد ان النسيان واجب، وان كان بركة في بعض الاحيان. لا بل ان الله يريد ان نتذكر، وان نتعلم مما اصابنا، وان ننمو في الحكمة. واذا كان الصفح يعني النسيان، فلكيلا نجتر الحقد والانتقام والثأر، ونذكر الجروح للننكأها. وما اخترنا من خبرات في الحياة يجب ان نستذكره لنتخذ في ضوئه ما يجب اتخاذه من قرار. وبهذا المعنى يقول المثل السائر: "ان ما يعلّم لا يخسّر".

مجتمع الأخذ

قال الاب رونالد ستانلي، احد الرهبان الواعظين: "ان مجتمعا نعيش فيه تعود الأخذ أكثر منه العطاء، ونجد هذا المنحى في اللغة المستعملة يوميا، كأن نقول، مثلا، خذ هذا القطار، او هذا المقعد، او هذا المصعد. وفي الواقع نحن لا نأخذ القطار، بل نستقل ونسلم ذاتنا اليه. ذلك ان اللغة تبوح برغبة طُبعنا عليها، وهي: رغبة الأخذ. وأسوأ ما نأخذ هو "الاهانة". ولماذا لا نترك الاهانة لمن يهدينا اياها؟ وبدل أخذها، علينا ان نصفح عنها كليا. والصفح ليس هدية نعطيها الآخرين، بل نعطيها انفسنا. واضمار الحقد معناه تحميل قلوبنا حجرا ثقيلا يعطل قدرتنا على المحبة. ومن سعى الى النيل منك حاول تحجيمك على قياسه، والانخفاض بك الى مستواه".

ويتابع قائلا: "كلما ازددنا ثقة بمحبة الله ايانا، بوصفنا ابناءه الاعزاء، تدحرجت الاهانات عنا كالماء عن السطح. وعندما كان يسوع معلقا على الصليب، حاول اعداؤه استدراجه بالاهانات والسباب للرد عليهم، ليصبح في مستواهم. فبددوا تلاميذه، وحطموا جسده، وحاولوا اخيرا تحطيم روحه. ولكن اهاناتهم ما كانت لتنال من قلبه، حتى وهو يعالج سكرات النزع والموت، فكان في سلام مع الله ابيه. ورفض ما وجّه اليه من اهانات. وبدلا من صب اللعنة على اعدائه، طلب من ابيه في صلاة حارة ان "يغفر لهم، لأنهم لا يدرون ما يصنعون".

ويضيف: "ولكي نستطيع ان نغفر كما غفر المسيح لصالبيه، يجب ان نكون اناس صلاة. لقد قضى يسوع ليله في صلاة، قبيل موته، مستعدا بها لملاقاة وجه ابيه السماوي. وبالصلاة ننمي السلام الداخلي الذي بدونه لا سبيل الى الصفح والغفران والمصالحة. وما من احد في امكانه ان يسلبنا هذا السلام الداخلي. قد يسلبنا الاعداء حسن الصيت، وينزلون بنا الاذى جسديا، ولكننا نحن وحدنا باستطاعتنا ان نتخلى عن هذا السلام الباطني. والصلاة تعمّق وعينا لحضور الله السلامي فينا، لذلك علينا ان نصلي للمسيء ليكف عن اساءته، وللمصرّ على الانتقام ليجد طريقه الى الصفح والغفران".

يؤثر عن مارتن كينغ قوله: "يجب ان نبقي على القدرة على الصفح وننميها. ومن لم يقدر على الصفح لا يقدر على المحبة، وفي اسوأ ما فينا بعض الحسن، وفي احسن ما فينا بعض السوء. وعندما نكتشف ذلك، نكون اقل ميلا الى كره اعدائنا، والصفح ليس عملا عابرا، بل حال مستمرة".

السلام والمصالحة

خص الارشاد الرسولي "رجاء جديد للبنان" قضية المصالحة بفصل عنوانه: "السلام والمصالحة". وقد جاء فيه: "في السنين الماضية، انطبع لبنان بمحنة الحرب. واليوم تقضي هذه الايام بتطهير حقيقي للذاكرات والضمائر. ولذلك ينبغي تعزيز السلام الدائم المبني بكل صبر واناة، لأن السلام وحده بامكانه ان يكون الينبوع الحقيقي للانماء والعدالة ... على المسيحيين، لأنهم تقبلوا من المسيح، امير السلام، هذه الهبة التي تبدلهم في داخلهم، ان يكونوا اول شهود للسلام، وفي مقدمة صانعيه. وانجيل السلام دعوة مستمرة الى الغفران والمصالحة ... وحيثما تجاهل الناس كل التجاهل ما بينهم من اخوة ينهار السلام من اساسه. وبناء السلام يصبح خدمة للمحبة. وهي علامة نبوية لملكوت السماوات".

اجل، ان السلام لا يبنى على البطش والقهر والظلم، وتهديم البيوت وتشريد السكان الآمنين، كما يجري في فلسطين اليوم. انه يبنى على العدالة، على ما يقول آشعيا النبي: "ومع العدل يجيء السلام، ومع الحق دوام الراحة والامن". وحيث لا عدالة لا سلام. وحيث الفقر منتشر، والجوع يفتك بالجياع، لا يمكن ان يكون سلام. وحيث لا سبيل الى القضاء على الظلم والاستبداد وانتهاك حقوق الانسان، كيف يمكن ان يكون هناك امل في رفع الوية السلام؟ وحيث يكون شعب بكامله يئن تحت وطأة الاحتلال، ويعيش مسلوب الارادة، محروم السيادة، مكبوت الحرية، منزوع القرار، لا مجال الى احلال السلام العادل، الشامل، الطويل الامد. وقد اعطى البابا يوحنا بولس الثاني رسالته في يوم السلام هذه السنة، هذا الشعار: "لا سلام من دون عدالة، ولا عدالة دون غفران".

لا شك في ان ما حدث في الولايات المتحدة في الحادي عشر من ايلول من السنة الفائتة، كان له تأثيره البالغ على السلام العالمي. وعبثا تشن الحرب على الارهاب بغية استئصاله في العالم، إن لم ترافق هذه الحرب خطة عملية مدروسة ترمي الى استئصال اسباب الفقر والظلم من الاساس في العالم، بحيث لا يموت غني من تخمة، وفقير من جوع. ولعل هذا ما يستوجب قيام نظام عالمي جديد يهدف الى النهوض بالمجتمعات المتخلفة، بحيث يشعر افرادها بأنهم ليسوا قطعانا بشرية تجهل ما لها من مصير وكرامة، فيما هي كائنات بشرية مخلوقة على صورة الله ومثاله.

وهذا ما لا تزال الكنيسة تذكر به من خلال تعليمها الاجتماعي. وجاء في تعليم الكنيسة الكاثوليكية في معرض الكلام عن العدالة والتضامن بين الامم ما يأتي: "هناك اسباب مختلفة ذات طبيعة دينية، سياسية، اقتصادية، ومالية، تخلع اليوم على القضية الاجتماعية... بعدا عالميا. وبين الامم التي هي اليوم مستقلة سياسيا، لا بد من التضامن. وهذا امر اصبح لا بد

منه، عندما تتعلق المسألة بتجميد "آليات مفسدة" تعرقل تطور بلدان اقل تطورا. وبدل انظمة مالية قائمة على الاستغلال، ان لم يكن على الرباء، من علاقات تجارية مؤذية بين الامم، ومن الاسراع الى الاسلحة، يجب بذل جهد مشترك لحشد الطاقات في اتجاه اهداف التطور الاخلاقي، والثقافي والاقتصادي" عن طريق تحديد الاولويات وسلّم القيم، على اساس ما تقرره الخيارات".

لو كان المسيحيون ينشطون حيثما لهم تأثير في محيطهم، وخاصة حيثما يتولون الاحكام، للعمل بتوجيه الكنيسة، لكان في استطاعتهم ان يضيئوا شمعة في ظلمة ليل الجهل في البلدان المتخلفة. وقد وصفت "الرسالة الى ديوغنيت" هذا الدور بقولها فيهم: "انهم في الجسد، ولكنهم لا يعيشون بالجسد. يسكنون الارض، لكنهم سكان السماء. يخضعون للقوانين الصحيحة، ويذهبون الى ابعد مما يطلبه القانون في سلوكهم ... يساء فهمهم، ويحكم عليهم بالموت، فيما تبقى حياتهم منتعشة. انهم فقراء، ويغنون الكثيرين. يفتقرون الى كل شيء، ويملكون كل شيء بوفرة. يحتقرون ويجدون الكرامة في غمرة الاحتقار. يسخر من اسمهم الطيب، ويعرض برهانا على براءتهم. يوبخون ويباركون بدلا من ذلك. يظلمون ويقدمون التكريم. وعندما يسلكون سلوك اناس ذوي استقامة، يعاقبون كمجرمين. وعندما يعاقبون يفرحون كما لو كانوا يكافأون... وللتعبير عن المسألة ببساطة: ان المسيحيين هم بالنسبة الى العالم ما هي النفس بالنسبة الى الجسد". ليت المسيحيين يفقهون هذه الحقيقة ويضعونها موضع العمل، ليتهم يعرفون ما قاله بولس الرسول يوما لأهل غلاطية وهو ان: "الشريعة كلها تكمل في وصية واحدة: "احب قريبك مثلما تحب نفسك. اما اذا كنتم تنهشون وتأكلون بعضكم بعضا، فانتبهوا ان يفني واحدكم الآخر".

ثالثاً: المصالحة مع الدولة

جاء في الارشاد الرسولي "رجاء جديد للبنان": "ان الكنيسة، في حكمتها واهتمامها بأن تخدم الانسان والانسانية، ترغب في ان تساعد اولئك الذين يعود اليهم القيام بخدمة عامة، فيؤدونها على احسن ما يرام، خدمة لاخوانهم. ويضيف: ينبغي ايضا ان نذكر بأن هناك ممارسة مسيحية لادارة الشؤون الزمنية، لأن البشرى الانجيلية تنير جميع الشؤون البشرية التي هي وسائل معدة، في آن معا، لأن تبني الاسرة البشرية وتقود الى السعادة الابدية. لا يمكن اذن ان يكون للمسيحيين "حياتان متوازيتان": احداهما، الحياة المسماة روحية، وهي كذلك بقيمها ومقتضياتها، والاخرى ويقال لها علمانية، ولها قيم مختلفة عن الاولى او مضادة لها. ومن هنا، ولأجل "ان يبثوا الروح المسيحية في النظام الزمني الذي هو خدمة الشخص والمجتمع، لا يجوز للعلمانيين قطعيا التخلي عن المشاركة في "السياسة"، اي عن النشاط الاقتصادي، والاجتماعي، والتشريعي، والاداري والثقافي المتعدد الاشكال الذي يستهدف تعزيز الخير العام، عضويا وعبر المؤسسات".

ما من شك في ان انهاض اي بلد من كبوته لا يتم الا بتضافر جهود جميع ابنائه. هذه هي القاعدة العامة. والكنيسة حضت دائما ابناءهافي جميع البلدان، حيث هي موجودة، على المشاركة في الحياة العامة. وهذا ما تقوم به الكنيسة في لبنان. ولكن ما هو باد للعيان ان هناك فريقا من المسيحيين اللبنانيين يشعرون بأنهم مهمشون، ومقصيون عن الحياة العامة. وهذا ما حمل الكثيرين من بينهم على الهجرة، والانكفاء، يقينا منهم ان لا دور لهم في بلدهم، سواء أكان سياسيا، ام اقتصاديا ام اجتماعيا ام تشريعيا ام اداريا، ام حتى ثقافيا. وقد حان الوقت، بعد مضي ربع قرن على الحروب اللبنانية، لاجراء مصالحة بين الدولة اللبنانية وجميع ابنائها لطي صفحة الحروب طيا نهائيا.

المشاركة السياسية

في الدولة الديموقراطية ينفسح المجال لجميع المواطنين الذين يتمتعون بحقوقهم المدنية للمشاركة في الحياة السياسية. ويبقى ميدانها مفتوحا لكل من يأنس من نفسه الرغبة في خدمة وطنه عن طريق تمثيله في المجالس التمثيلية، فيطرح نفسه مرشحا للانتخابات النيابية او البلدية او لما سوى ذلك من مجالس ومؤسسات وطنية. وعلى الشعب ان يختار من

يرى فيه الكفاية لتمثيله، على ان يسائله عن كيفية استعماله لهذه الوكالة التي منحه اياها، لدى نهاية ولايته، وهو اما ان يجدد ثقته به وينتخبه ثانية، وربما ثالثة ورابعة، بحسب ما تنص عليه الدساتير، واما ان يخذله، ويستبدله بسواه من المواطنين.

ولكن اذا صيغت القوانين الانتخابية، كلما كان هناك انتخاب، وقبيل حلول موعد الانتخابات بشهرين او شهر، بحيث لا يبقى متسع من الوقت لتقديم اي اعتراض او للنظر فيه، وقُسمت الدوائر الانتخابية تقسيما يفسح في المجال لأكثر من عشرين مرشحا للاحتشاد في لائحة واحدة، بحيث تُغرق اصوات الاكثرية من لون واحد اصوات الاقلية في الدائرة ذاتها، فأين يكون التمثيل الصحيح؟ ومعلوم ان الدائرة الفردية هي المعتمدة في جميع دساتير البلدان الراقية. وهذا ما يمكن الناخبين من اختيار من يثقون بكفايته لمعرفتهم اياه ومعرفته اياهم، عن كثب. واذا انبرى المرشح ليقول للناخبين الذين يشعر بأنهم لا يميلون اليه: "سيان انتخبتم ام لم تنتخبوا. انا سأكون نائبكم". فأي ديموقراطية هي هذه، واي تمثيل هو هذا؟ وكيف في استطاعة غير المرغوب فيهم ان يشاركوا في الحياة السياسية، ما داموا مقصيين عنها عن ارادة وتصميم؟ وما دامت هناك ارادة غير وطنية تُجلس المسؤولين في مقاعدهم وتفرض عليهم معاونيهم، في اعلى المناصب؟

والاقتصادية

ما من احد يجهل ان الاقتصاد رهن بالسياسة. فاذا استقامت السياسة استقام الاقتصاد. واذا كان الوضع السياسي عندنا على ما هو معروف، فكيف لا يكون الاقتصاد متدهورا. ولا نريد أن ندخل في أسباب التدهور وهي كثيرة، يعرفها أرباب الاقتصاد وعندما تكون هناك مناقصات يعتمد لها اشخاص وشركات من دون سواهم، ولو رسا الالتزام على غيرهم، طمعا في اقتسام المغانم بين المسؤولين والمنفذين للمشاريع، بحسب ما يتناقله العارفون، فكيف يزدهر الاقتصاد؟ ولو كانت تُعتمد الشفافية منذ البدء، لما كان هناك مجال للأقاويل، صحيحة كانت، ام مختلفة ومتجنية.

وعندما لا تعنى الدولة باقتصادها، فلا تعمد الى حماية اليد العاملة الوطنية من مزاحمة اليد العاملة الغريبة، ولا الانتاج الوطني من البضائع غير الوطنية المتدفقة عليها من وراء الحدود، وعندما لا تشجع الصناعة الوطنية بمنحها بعض تسهيلات لا بد منها لتحول دون لجوئها الى بلدان مجاورة تجد فيها التسهيلات المطلوبة، وعندما لا تجد سوقا مؤاتية للمواسم الزراعية، فكيف يمكننا ان ننعم باقتصاد مزدهر؟

وعندما يأتي المستثمرون من اللبنانيين المهاجرين من اصحاب الرساميل ليوظفوا في بلدهم الاول، ويروحون يتنقلون من دائرة الى دائرة لاجراء المعاملات المطلوبة، وفي كل منها يجدون ما لم يكونوا ينتظرونه من عراقيل تثبط همتهم وتقنعهم بوجوب العدول عن مشاريعهم والرجوع الى بلد اتوا منه. هذا اذا لم تُطلب منهم مشاركة هذا او ذاك من اصحاب النفوذ في الداخل والخارج.

فلا عجب، والحال هذه، اذا انتكس الاقتصاد اللبناني، واقفلت مصانع، وبارت اراض زراعية، وعجزت يد عاملة لبنانية عن ايجاد سوق عمل، وهاجر شبان وشابات يحملون شهادات جامعية الى حيث يجدون عملا يرضيهم، وهيهات ان يعودوا، بعد ان يكونوا اسسوا عائلات، واصبحت لهم صداقات، واعمال واسعة تستوجب ادارتها ومراقبتها عن كثب. وكيف السبيل الى المشاركة الاقتصادية التي يرغب فيها جادين اللبنانيون القادرون عليها، اذا كان الامر على ما هو من سوء حال؟

والاجتماعية

ما من شك في ان من واجب المؤسسات الاجتماعية ان تساعد الدولة على القيام بمسؤولياتها. وهذا ما شدد عليه المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني. وللجمعيات الاهلية مكانها ومكانتها في كل مجتمع سليم، ومساهمة المجتمع في تأمين الخير العام واجبة. وهذا ما جاء في تعليم الكنيسة الكاثوليكية الذي يقول: "ان مشاركة الجميع في تحقيق الخير العام يتضمن، ككل واجب ادبي، تحولا يتجدد باستمرار للفئات الاجتماعية. فالغش، وما يشابهه من وسائل يعمد اليها

بعضهم الى التهرب من موجبات القانون، ومن فرائض الواجب الاجتماعي، يجب رذلها بشدة، لأنها تتنافى ومقتضيات العدالة الاجتماعية ويجب الاهتمام بالمؤسسات التي تسعى الى تحسين احوال الناس.

ويضيف: "ويتوجب على الذين يتولون السلطة ان يعززوا القيم التي تستجلب ثقة اعضاء الجماعة، ويستحثوهم على وضع نفوسهم في خدمة امثالهم. وتبدأ المشاركة بالتربية والثقافة. ويمكن التفكير بجدية بأن مستقبل البشرية هو في ايدي الذين يستطيعون نقل اسباب الحياة والرجاء الى اجيال الغد".

ولكن اذا كانت هموم الامن هي التي تطغى على اي همّ اخر، وتقضي على المسؤولين عنه بحظر التجمعات، ولو مشروعة، فكيف في استطاعة العاملين في الحقل الاجتماعي ان يعملوا بنشاط متجدد وحرية تامة، وهم مراقبون عن كثب، ومتهمون بالانحراف السياسي، واثارة الشغب؟ ولم ينس المواطنون ما حدث في السابع من آب من السنة الماضية من توقيفات واتهامات بمؤامرة على الدولة لا وجود لها، وكلفت البلد هروب رساميل ضخمة، هو بأمس الحاجة اليها في وضعه الاقتصادي الذي لا يحسد عليه.

والتشريعية

النظام الديموقراطي يأمر بفصل السلطات ويوجب عليها التنسيق في ما بينها. وللسلطة التشريعية اهميتها. فهي التي تسن القوانين، وتصدر التشريعات التي ترعى الحياة العامة. وهي تفترض ان يدخل المجلس النيابي التشريعي اناس يتميزون بتضلعهم من القانون، وفقههم اياه، وقدرتهم على تمحيصه، ومناقشة ما فيه من مذاهب ونظريات. ولكن اذا افتقر المجلس الى العدد الكافي من هؤلاء الرجال، واذا اهمل اعضاؤه مواكبة الحركة التشريعية في العالم، واذا كان التشريع يهدف في غالب الاحيان الى تحقيق مصلحة هذا او ذاك من اهل الحكم، من دون توخي المصلحة العامة، فيكون قد انحرف عن الهدف الذي قام المجلس التشريعي من اجله.

فكيف اذا اختلطت السلطات واشتبكت وتقاطعت بحيث تجاوز بعضها بعضا، فتولت السلطة التشريعية التنفيذ، والسلطة التنفيذية التشريع، والسلطة الامنية قفزت فوق الاثنتين معا، اضافة الى السلطة القضائية، فاوقفت هذا، واحتجزت ذاك، قيد التحقيق، ويمضي الشهر والاشهر، والموقوف موقوف، ولا تحقيق، ولا محاكمة، ولا حكم، ولا افراج عن المحتجزين، من دون اظهار اي احترام لحقوق الانسان.

والادارية

وكيف تقوم السلطة الادارية اذا كانت الشواغر فيها تبقى شواغر الى آماد طويلة، في انتظار الاتفاق على اسماء من سيشغلونها لمعرفة، لا ما يتحلون به من كفاية ومناقبية، واخلاص للشأن العام، بل لمعرفة الى اية طائفة ينتمون، وكلما شغلت احدى الطوائف مركزاً تسجّل على اسمها، ولو كانت الصفات المطلوبة لا تتوافر في من دعي الى ملء هذا المركز الشاغر، ويحرد الموظف الناجح الذي يكون قد قضى في الخدمة سنوات طويلة اكتسب معها خبرة لم تتوافر لسواه، وهي خبرة تمكنه من تحقيق رغبته المشروعة في التدرج، والارتقاء الى احدى قمم السلك الذي هو فيه، فإذا بالطائفية تحول دون رغبته، وتنشلّ الادارة، ويشكو المواطنون تعطيل معاملاتهم، ويضيعون الوقت على الطريق ذهاباً الى الدائرة المختصة، واياباً منها، في انتظار ان يأتي الموظف الغائب في سفر، او المرتبط بموعد آخر، فيما مثل هذه المعاملات الروتينية تقضى في البلدان المتحضرة بالبريد، وبكل سهولة.

وما القول اذا تواطأ الموظف والمواطن المكلف على مصلحة الخزينة، فيتم الاتفاق بينهما على مبلغ مخفض يتقاضى نصفه الموظف ويذهب الباقي الى صندوق الخزينة، وهو لا يوازي ربما ربع ما يعود الى الدولة من حقوق. وهكذا يُفرِغ القانون من مضمونه من كُلّف تنفيذه ويخرقه من دون ان يطرف له جفن.

والثقافية

لا جدل في ان ثروة لبنان هي ثقافة ابنائه. وهذه الثقافة هي التي مكّنتهم من تبوء اعلى المراكز حيثما حلّوا. ومن واجب المواطنين ان يقبلوا عليها، وينهلوا من معينها، وبخاصة الاجيال الطالعة من بينهم، ولكل بلد هوية ثقافية خاصة به. والثقافة هي التي تنقذ كل بلد يتميّز بها من الضياع، والاستكانة الى الاحتلال والتبعية، وفقدان الذاكرة. ومن واجب الدولة "ان تمكّن كلاً من المواطنين من الحصول على الخير العام، اي ما يحتاج اليه ليعيش عيشة حقاً انسانية: من مأكل، ومشرب وملبس، وصحة وعمل، وتربية، وثقافة، واعلام مناسب، وحق في تأسيس عائلة".

غير ان هناك تجاذباً حول الهوية الثقافية في لبنان، لمعرفة ما اذا كانت شرقية عربية ام غربية مسيحية؟ وهو تجاذب في غير محله، على ما يعتقد الكثيرون من اللبنانيين وغير اللبنانيين. وفي لبنان مسيحيون ومسلمون، يأخذون جميعاً بقسط من الثقافة الشرقية الاسلامية وبقسط من الثقافة الغربية المسيحية. وهذه هي قوة لبنان وفرادته. غير ان هذا التجاذب لم يبق له مكان في ظل العولمة التي فتحت المجال لكل انواع الناس والحضارات لتتلاقى وتتلاقح وتتفاعل. والسؤال المطروح هو: هل ستبقى هناك حضارات متقوقعة على ذاتها لا تتأثر بما سواها من الحضارات؟ والذين يقولون بصراع الحضارات بل تعاونها، ينذرون العالم بويل كبير. وعلى كل نحن في لبنان تعمقنا في الثقافتين فجعلنا منهما ثقافة واحدة هي الثقافة اللبنانية المتميزة والتي يجب ان ننميها ونطوّرها لخير جميع اللبنانيين، بدلاً من تغليب احداهما على الاخرى. وفي هذا المجال يجب ان يقوم تعاون صادق لخير الجميع المشترك. ورغم ما اشرنا اليه من نواقص، يبقى العمل بنصيحة الارشاد الرسولي واجباً، عندما يقول: "لا يجوز للعلمانيين قطعياً التخلي عن المشاركة في "السياسة" اي النشاط الاقتصادي، والاجتماعي، الى ما شابه، وذلك بغية تحسين الاوضاع اذا كان من مجال للسماح بتحسينها.

ايها الاخوة والابناء الاعزاء، المصالحة مع الله والناس والدولة، واجب لا بد من ان يلتزمه كل مواطن يعي حق المواطنية الصحيحة، ويريد الخير لوطنه. واذا كنا تطرقنا لبعض النواقص التي تعرقل هذه المصالحة مع الناس والدولة، فليس حباً بالنقد، انما للدلالة على مواطن الخطأ قصد الاصلاح.

ولا مصالحة من دون تنقية ذاكرة، وضرب صفح عن الماضي، والتضافر في سبيل غد افضل. وقد آن الاوان لتحزم الدولة امرها لتجمع جميع ابنائها حولها وتفسح لهم في المجال لانهاض الوطن الذي يغرق يوماً بعد يوم، نتيجة هذه التفرقة القائمة بين مواطنين صالحين، ومواطنين سيئين وخونة. والنظام الديموقراطي يسمح بتعدد الآراء، وبالمجاهرة بالرأي المختلف، ما دام باقياً في نطاق الرأي، ولم يتعده الى الاعمال العنفية بغية تبديل النظام. وان لم تنمِّ الدولة مشاعر ابوّة حيال جميع اللبنانيين، مقيمين ومغتربين، مبعدين ومحتجزين، من دون ان تعتبر ان بينهم غالبين ومغلوبين، فلن ينهض اقتصاد ولن تزدهر سياحة، ولن تستقيم سياسة، ولن يهنأ مواطنون. وهذا ما لا نريده، بل نريد عكسه: اي نهوض الاقتصاد وازدهار السياحة، واستقامة السياسة، وهناء المواطنين.

وقد اوردنا ما اوردناه، وهادينا ما جاء في الارشاد الرسولي "رجاء جديد للبنان"، وهو انه: "من واجب الكنيسة ان تذكّر بلا ملل بالمبادئ التي وحدها تستطيع ان تؤمّن حياة اجتماعية متناسقة، تحت نظر الله. ولان الكنيسة تعيش في العالم، فإن اعضاءها... يشاركون في بعدها الدنيوي"، ويضيف: "ان الكنيسة، في حكمتها واهتمامها بأن تخدم الانسان والانسانية، ترغب في ان تساعد اولئك الذين يعود اليهم القيام بخدمة عامة".

وعلى امل في ان تتضافر جهود من هم في الحكم، ومن هم في خارجه، لانهاض لبنان من كبوته، بعد اجراء مصالحة حقيقية تشمل الجميع دونما استثناء، وذلك بروح الالفة والمحبة التي نادى بها السيد المسيح، ويوحنا الرسول بقوله: "اذا قال احد: "انا احب الله"، وهو يكره اخاه، كان كاذباً، لان الذي لا يحب اخاه، وهو يراه، لا يقدر ان يحب الله، وهو لا يراه. وصية المسيح لنا هي: من احب الله، احب اخاه ايضاً".

ولنصغ اخيراً الى صوت البابا المكرّم يوحنا الثالث والعشرين يقول في احدى رسائله: "انا ندعى اخوة. نحن الآن اخـــوة. لنا مصير مشترك في هذه الحياة، وفي الحياة المقبلة. لماذا اذن نتصرّف كأننا اخصام واعداء؟ لماذا يحسد بعضنا بعضـاً؟ لماذا نستثير البغضاء؟ لماذا نهيّيء السلاح القاتل للاستعمال ضد الاخوة؟".

لقد اندلع ما يكفي من الحروب حتى الآن بين الناس! وكثير من الشبّان في زهرة العمر سفكوا دماءهم حتى الآن! وهناك آلاف مؤلفة من الموتى سقطوا في ساحات القتال، وهم يرقدون في تربتنا. وهناك اصوات حادة تصرخ بنا جميعاً للعـــودة مرة اخيرة الى الانسجام، والوحدة، والسلام العادل".

هذا ونسأل الله، بشفاعة سيدة لبنان ومار مارون، ان يجعل صومكم مباركاً وتضحياتكم مثمرة، واحساناتكم مقبولـــة، وان يوطد ايمانكم به تعالى، مقيمين ومغتربين، وثقتكم ببعضكم عميقة، وان يسدد خطاكم الى ما فيـــه رضـــاه تعـــالى ونيـــل بركاته.

الكاردينال

نصرالله بطرس صفير

بطريرك انطاكية وسائر المشرق

بكركي في ٩ شباط، عيد مار مارون ٢٠٠٢".